تعقيب على بحث الدكتور محمد البقاعي

"أدريان بروست" ليس له رحلة إلى الحجاز!

تحظى الكتابات الاستشراقية عن المنطقة العربية بقبول واضح خاصة في الفترة الأخيرة التي اهتم فيها المستشرقون بالنواحي الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والجغرافية، وإيضاحها بصورة علمية سليمة إلا من بعض النقاط التي أخطؤوا فيها نتيجة عدم إلمامهم بالمنطقة العربية إلمامًا كاملاً.

ولقد طالعتنا مجلتنا العزيزة " الدَّارة " ببحث للدكتور / محمد خير البقاعي(١) عن رحلة وكتاب للدكتور " أدريان بروست ". وفي هذا البحث استنتج الدكتور محمد أنَّ أدريان بروست ليست له رحلة إلى بلاد الحجاز وكتابه منقول من كتب رحَّالة آخرين.

وبعد مطالعتي للبحث توقفت أمام نقطتين كان يجب إبرازهما والتأكيد عليهما.

النقطة الأولى :

وهي استدلال الدكتور محمد خير البقاعي بعدم وجود رحلة لـ "أدريان بروست" لأنه كان طبيبًا ولم يكن رحَّالة.

فهذا الاستدلال قد يجعلنا نتوقف بالشك والريبة حول جميع كتابات الرحَّالة الآخرين؛ وذلك لأن كل واحد منهم كان متخصصًا في علم من العلوم مثل: الهندسة والجغرافيا - الفلك - النبات - الاجتماع - التربية - أو علم أجناس السكان، وكل واحد منهم أفاض

---

(١) العدد الثالث - السنة الثامنة والعشرون ١٤٢٣هـ، ص ١٣٧.

في تخصصه، وذلك عند دراسته لمنطقة رحلته، ثم بعد ذلك يعرج إلى شرح النواحي الأخرى للبلاد من كيفية حكم وإدارة البلاد ونواحي التعليم والتربية وعمليات البيع والشراء وحركة الأسواق، وقد يعرض لبعض المظاهر التضاريسية للمكان وحالة المناخ في بعض الفصول أو كلها إذا استمرت رحلته عامًا كاملاً.

وهذا هو الحال مع جميع كُتَّاب الرحلات، فالرحلة ليست تخصصًا، وإنما قوة ملاحظة ومهارة في دراسة المكان ومشتملات البيئة.

وهذا ما فعله الدكتور "أدريان بروست" حيث أفاض في شرح الجوانب الصحية لمنطقة الحجاز وخاصة أيام الحج ثم بعد ذلك تطرق إلى مواد أخرى مثل: العادات والتقاليد الاجتماعية والنواحي السياسية وخاصة عندما تحدث عن شريف مكة(٢).

فإنكار أن تكون للدكتور / "أدريان بروست" رحلة إلى بلاد الحجاز؛ لأنه طبيب وليس رحَّالة يجعلنا بالتالي نرفض بقية كتابات الرحَّالة الآخرين؛ لأن كتَّابها إما علماء اجتماع أو اقتصاديون أو سياسيون وضباط جيوش وليسوا برحَّالة.

"فأدريان بروست" سار على منهج السابقين نفسه في كتابة الرحلة، وهي الإفاضة والتوسع في مادة التخصص ثم العرض البسيط غير المخل لبقية الجوانب الحياتية الأخرى.

النقطة الأخرى :

هي عدم ذكر المراجع التي استقى منها "أدريان بروست" معلومات كتابه عن بلاد الحجاز، فطالما أنه نقل هذه المعلومات عن كتب أخرى

---

(٢) المصدر السابق.

فكان أحرى بالدكتور محمد خير البقاعي أن يورد في بحثه المصادر والمراجع التي نقل منها "أدريان بروست" معلوماته؛ ولكن للأسف لم نر أي مراجع أو مصادر أظهرها البحث تدل على نقل "أدريان بروست" منها، وتدل على أن كتابه ليس نتاج رحلة حقيقية، وإنما رحلة بين أوراق كتب نقل منها معلوماته.

وإلى هنا فإنكار رحلة " أدريان بروست " لأنه كان طبيبًا تعد في غير صالح كُتَّاب الرَّحلات الآخرين؛ لأن منهم المهندس والضابط والجغرافي والمؤرخ والجيولوجي والسياسي والاقتصادي فهل ننكر على واحد منهم رحلته وكتابه؛ لأنه كان مهندسًا ولم يكن رحَّالة، وعلى آخر طوافه بالبلاد ودراسته وكتابه، لأنه كان مؤرخًا أو جيولوجيًا أو ضابطًا أو سياسيًا أو عالم اقتصاد أو اجتماع ؟!

إن هذه الجزئية لو تمسكنا بها في عملية تقييم الرَّحَّالة وكتبهم والتأكد من رحلاتهم وكتاباتهم سوف تدفع بعالم الرِّحلة وعلماء وكتب الرحلات إلى الهاوية، ألا وهي هاوية الإنكار وعدم الاعتراف.

مصطفى حافظ هارون حسين

مدرس بالتعليم الثانوي بالأزهر الشريف

الجمهورية العربية المصرية

رد الدكتور محمد البقاعي:

إنه لمن دواعي الارتياح أن يجد المرء من يتتبع ما ينشره في المجلات العلمية من أبحاث تتناول مجمل شؤون المنطقة العربية مما كتبه الآخرون عنها؛ لأن ذلك يمثل دليلاً على أهمية تلك البحوث.

وتفضل القائمون على مجلة " الدارة " الغراء بإطلاعي على تعليق أحد القراء الأعزاء على بحثي المنشور في العدد الثالث - السنة الثامنة والعشرين ١٤٢٣هـ بعنوان " أدريان بروست ليس له رحلة إلى الحجاز ".

علق الأخ القارئ على نقطتين، سأحاول الرد عليهما شاكرًا له بادئ ذي بدء اهتمامه وتتبعه، ولكنني قبل ذلك أود القول : إن ما ذكره الأخ المعقب من أن البحث كان عن رحلة وكتاب للدكتور: "أدريان بروست"، ليس بصحيح؛ لأن البحث كان يهدف إلى إثبات أن "أدريان بروست" ليس له رحلة، وأنه ليس برحَّالة؛ وهذا يكون مدخلاً للرد على النقطة الأولى التي يقول كاتبها: إن كون "أدريان بروست" طبيبًا لا يتعارض مع كونه رحَّالة، ولا ينفي أن تكون له رحلة.

وهذا صحيح مبدئيًا إلا أنه مصروف إلى غير وجهه؛ لأنني لم أقل ذلك، وكون "أدريان بروست" طبيبًا لا علاقة له بوجود رحلة، فقد يكون الرحالة طبيبًا أو غير ذلك، ولكنني أثبت أن "أدريان بروست" لم يكن رحَّالة، وأن ما كتبه عن رحلات الحج منقول من كتب الآخرين الذين ذهبوا إلى الأراضي المقدسة من الرحَّالة الغربيين، وبذلك يكون فهم الأخ المعقب للفقرة الأولى مغلوطًا؛ لأنه استخدم مقدمة صحيحة ليصل إلى نتائج غير صحيحة.

وإفاضة "أدريان بروست" في الجوانب الصحية طبيعية؛ لأن هذا الأمر كان مسؤوليته بوصفه طبيبًا صحيًّا مختصًا بانتشار الأوبئة، وممثلاً لفرنسا في عدد من المؤتمرات الصحية التي عقدت عن انتشار الأوبئة، ناهيك أن عنوان كتابه الذي نحن في سبيل ترجمته بعد أن صورته لنا الدَّارة مشكورة هو : "الاتجاه الجديد للسياسة الصحية"، وهو كما يتضح لا علاقة له بالرحلة والترحال.

أما النقطة الثانية فهي أنني لم أذكر المصادر التي استقى منها "أدريان بروست" مادة كتابه؛ والحقيقة أنني فعلت ذلك في القسم الذي نقله "أدريان بروست" من كتب الرحَّالة أمثال: جرفيه كورتلمون، وبرتون وغيرهما، وهذا القسم هو الذي ترجمناه ونشرناه في مجلة الملك فهد الوطنية بعنوان " الحج إلى مكة المكرمة وانتشار الأوبئة "؛ وهو بحث استله "أدريان بروست" من كتابه المذكور ونشره في مجلة "العالمين".

ولو دقق الأخ المعقب في حواشي البحث لوجد أننا ترجمنا الملحق الذي وضعه كروتلمون في رحلته، واعتمد فيه على كتاب "أدريان بروست"، وأننا أشرنا إلى كثير من مصادره، وسنفعل ذلك بتوسع أكثر عندما سنصدر كتاب "أدريان بروست" مترجمًا إن شاء الله.

وإنني أعذر الأخ المعقب لأنه، وهو يكتب ما كتبه، لا يعرف طبيعة كتاب "أدريان بروست" ، ولو اطلع عليه لبدا له أن ما يذكره ليس له وجه من الصواب.

أما ما يختم به الأخ تعقيبه من قول : (إن هذه الجزئية لو تمسكنا بها في عملية تقييم الرحَّالة وكتبهم والتأكد من رحلتهم وكتاباتهم سوف تدفع بعالم الرحلة وعلماء وكتب الرحلات إلى الهاوية ألا وهي هاوية الإنكار وعدم الاعتراف).

أقول: إن هذا تزيّد ولم يكن هو هدفي وأنا أكتب البحث، ولو عرف الأخ المعقب اهتمامي بكتب الرحلة وبالرحالين، غربيين أو شرقيين لاتضح له عدم صحة ما ذهب إليه، فالبحث ليس هدفه الإنكار وإنما إيضاح الحقيقة العلمية في قضية تحتاج إلى أن توضع في نصابها الصحيح.

والله أعلم.

د. محمد خير البقاعي